

ضلال الاعتذار



سهيلة بن هنة



لم يكن الاعتذار
ضعفاً دائماً...
وقد يكون الضلال
أن تعتذر حين لا ذنب لك

ضلال الاعتذار ♦ (الجزء الأول)

كانت سهيلة تؤمن أن الحبّ نعمةٌ تُحيي الأرواح، لا لعنة تفنك بالقلوب. كبرت وهي تحمل بداخلها شغفاً خاصاً، كأنها خلقت لتزرع الأمل في الآخرين. كانت تعشق الكتب والكتابة، تقضي الساعات بين صفحات الروايات تبحث عن نفسها بين السطور، وكأنها تنتظر أن تلمح ملامحها في حكايةٍ تكتب لغيرها.

في إحدى الأمسيات الباردة، وبينما كانت جالسة في مقهى صغير على رصيف هادئ، انشغلت بكتابة خواتمها في دفتر أسود يرافقها أينما ذهبت. لم تكن تعلم أن هذا المساء سيغيّر مسار حياتها. اقترب منها شاب في أواخر العشرينات، يحمل ابتسامة واثقة وعيوناً مليئة بالفضول. قال بنبرة دافئة:
– "إمكانني الجلوس هنا؟ المقهى مزدحم."

رفعت رأسها بخجل، وأشارت إلى الكرسي المقابل. لم تكن تدري أن هذا الغريب، الذي سيعرّف نفسه بعد لحظات باسم آدم، سيصبح الجرح الأكبر في حياتها، والذكرى التي ستقسم قلبها نصفين.

كان آدم مختلفاً... أو هكذا بدا لها. كان يستمع إليها باهتمام، يشاركها الحديث عن الكتب والأحلام، يضحك من أبسط كلماتها وكأنها موسيقى. ومع مرور الأيام، تحوّلت لقاءاتهما العابرة إلى مواعيد مقصودة، ثم إلى علاقة أعمق مما توقّعت. وجدت سهيلة نفسها تسلّم قلبها له بلا مقاومة، كمن وجد أخيراً نصفه الضائع.

كان الحب بينهما في بدايته نقياً، مليئاً بالوعود:

– "لن أتركك أبداً."

– "أنتِ قصتي التي لم تكتب بعد."

كلماتٌ كانت كفيّلة بأن تبني لها عالماً من الأحلام، فصدّقت... وأمنت... وعاشت أجمل أيامها.

لكن شيئاً ما بدأ يتغيّر.

لم تفهم كيف تحوّل حضوره الدافئ إلى غيابٍ متكرر، وكيف تحوّل كلامه الطويل إلى ردود مقتضبة باردة. كانت تكتب له رسائل طويلة، فيجيبها بكلمة واحدة. كانت تسهر تنتظر صوته، فيغلق هاتفه بحجج العمل والانشغال.

ذات مساء، جلست في غرفتها أمام نافذتها، تحدّق في القمر. أمسكت دفترها وكتبت:

"أخاف أنني صرتُ زائدة في حياته... أخاف أنني أحببتُ كثيراً بينما هو لم يعد يحب."

ولم يطل الأمر حتى جاءت اللحظة التي كسرت قلبها.

قال لها بصوت بارد لم تعهده:

– "سهيلة... أعتقد أننا بحاجة لبعض المسافة. لا أظن أنني مستعدّ للاستمرار."

كانت كلماته كصفعة على وجهها. صمتت، لم تجد جواباً. لم تسأله لماذا، لأنها كانت تخشى أن تسمع الحقيقة القاسية: أنه لم يعد يحبها.

انسحب آدم من حياتها تاركاً وراءه فراغاً قاتلاً، وصارت أيام سهيلة مظلمة، كل ركن فيها يذكرها به. لكنها رغم دموعها الكثيرة، كانت تعرف أن سقوطها لن يدوم... لأن في داخلها قوة لم تكتشفها بعد. ضلال الاعتذار ♦ (الجزء الثاني)

لم تكن سهيلة تعرف أن الليل يمكن أن يكون بهذا الطول، ولا أن الصمت يمكن أن يكون بهذا الثقل.

كلما أغلقت عينيها، سمعت صدى كلماته الأخيرة: "لسنا مستعدين للاستمرار."

كانت تضع رأسها على الوسادة، لكنها لم تكن تنام. الدموع تنهمر بلا استئذان، والذاكرة تعيدها إلى لحظات ضحكه، إلى تفاصيل صوته، إلى وعودٍ صارخة لم يبق منها سوى الرماد.

أيامها الأولى بعد الانفصال كانت قاسية. لا شهية للطعام، لا رغبة في الخروج، ولا شغف لكتابة حرف واحد. حتى دفترها الأسود، الذي كان سرها الكبير، أغلقت وخبأته في درجٍ بعيد. شعرت أنّها فقدت نفسها كما فقدته.

لكنّ القدر لم يتركها في قاع الجرح طويلاً.
في صباح ما، جلست والدتها بجانبها وقالت:
– "يا ابنتي... الحياة لا تتوقف عند أحد. نحن نولد وحدنا، ونموت وحدنا، وما بينهما، من يرحل ليس قدرنا بل اختيارنا. فقومي...
فأنت أقوى مما تظنين."

تلك الكلمات اخترقت قلبها، أيقظت شيئاً بداخلها. في تلك الليلة، وقفت أمام المرأة طويلاً، رأت وجهًا شاحبًا وعينين متعبتين، لكنها ابتسمت ابتسامة صغيرة وقالت بصوتٍ مرتجف:
"لن أسمح له أن يقتلني."

بدأت تستعيد حياتها خطوة خطوة.
خرجت من غرفتها إلى العالم من جديد، عادت إلى مهني الحي الذي شهد أول لقاء بينها وبينه. جلست وحدها، طلبت قهوة سوداء، وفتحت دفترها الأسود. يديها كانتا ترتجفان، لكنها كتبت أول سطر بعد غياب طويل:
"من يرحل بإرادته، لا يستحق أن أبكي عليه كل هذا الوقت."

مرت الأسابيع، وصارت سهيلة مختلفة.
بدأت تكتب قصصاً قصيرة وتشرها على مواقع التواصل. فوجئت بتفاعل الناس مع كلماتها، كانوا يرون في كتاباتها قوة وجرأة رغم أن خلف السطور كان قلباً جريحاً يتعافى ببطء.
صديقتها المقربة ريم كانت دائماً إلى جانبها، تذكّرها بقيمتها، تجرّها إلى نزاهات، وتقول لها ضاحكة:
– "تعلمين؟ جرحك جعلك أجمل... لأنك الآن امرأة حقيقية، لست مجرد فتاة تحلم."

شيئاً فشيئاً، بدأت سهيلة تستعيد شغفها بالحياة.
سجّلت في دورات كتابة، شاركت في مسابقة أدبية صغيرة، ووجدت نفسها ضمن الأسماء الفائزة. كان ذلك اليوم نقطة تحول، شعرت أنها أخيراً خلقت شيئاً يخصّها وحدها، بعيداً عن أي رجل.

لكنها رغم ذلك، لم تنسَ الجرح لم يختفِ تماماً. كان داخلياً مثل ندبة خفية، يذكرها بما حدث. كلما رأت عاشقين في الطريق، ابتسمت ابتسامة حزينة، لكنها لم تعد تنهار.

لقد وُلدت من جديد، ومن رمادها قامت.
لكنها لم تكن تعلم أنّ القدر يخبئ لها مواجهة أخرى... مواجهة ستعيدها إلى بداية الحكاية، حين سيظهر "آدم" من جديد، محملاً بالندم والاعتذار. ♦ ضلال الاعتذار ♦ (الجزء الثالث)

صارت أيام سهيلة مختلفة. لم تعد تلك الفتاة التي تنتظر رسالة هاتفية أو اتصالاً قصيراً ليكتمل يومها، بل أصبحت هي التي تصنع يومها بنفسها. كانت تنهض صباحاً بشغف، تمسك قلمها وتكتب، تفتح حاسوبها لتكمل روايتها الأولى، وتخرج إلى المدينة بخطوات واثقة لا تشبه خطواتها القديمة.

مع مرور الوقت، بدأ الناس يلتفتون إليها.
في الجامعة، كان أساتذتها يشيدون بأفكارها ومقالاتها، وزملاؤها يندهشون من تحوّلها من فتاة هادئة منطوية إلى شخصية جريئة تعبّر عمّا بداخلها بلا خوف.
وفي العالم الافتراضي، كبرت صفحاتها الأدبية بسرعة، وصارت كلماتها تنتشر بين المئات ثم الآلاف. كانت تتلقى رسائل من قرّاء غرباء يقولون لها: "كلماتك أنفذتني"، "قصصك تجعلني أقوى"، "أنت تكتبين ما لا أستطيع قوله".

تذوقت سهيلة طعم النجاح لأول مرة. لم يكن نجاحاً مادياً، لكنه كان انتصاراً معنوياً عظيماً.
في إحدى الأمسيات، وقفت على خشبة صغيرة بمكتبة عامة لتقرأ نصّاً من كتاباتها أمام جمهورٍ لأول مرة. قلبها كان يخفق بشدة، يداها ترتجفان، لكنها حين بدأت القراءة انطلقت الكلمات من فمها كأنها طيور حُررت من قفص.
وحين انتهت، دوى التصفيق عاليًا، فامتألت عيناها بالدموع. لكن هذه المرة لم تكن دموع حزن، بل دموع نصرٍ داخلي، دموع امرأة أدركت أن الخذلان لم ينته بها بل بدأ بها.

كانت ريم تبتسم من بين الحضور وتصفق بحماس، ثم اقتربت منها وقالت:

– "أترين؟ لقد كنت تظنين أن قلبك المكسور نهايتك، لكنه كان بابك نحو بدايتك الحقيقية." ضحكت سهيلة وقالت:
– "أحياناً علينا أن ننكسر لنكتشف قوتنا."

لكن رغم هذا الصعود، كان الليل يحمل معها بقايا الماضي. كانت تجلس أحياناً وحيدة، تتأمل النجوم، وتتساءل: "هل يفكر بي كما أفكر به؟ هل يندم؟ هل يعلم أنني لم أعد تلك الفتاة التي تركها؟" كانت تشعر بظله يلاحقها، لكنه لم يعد يسيطر عليها. صار مثل ذكرى بعيدة تحاول العودة لكنها تجد باباً مغلقاً.

و ذات يوم، وبينما كانت منهمكة في قراءة بريدها الإلكتروني، وجدت رسالة غريبة من عنوان مألوف... قلبها ارتجف. كان اسمه مكتوباً هناك: آدم. ترددت قبل أن تفتحها، لكن فضولها غلبها. فتحت الرسالة، فقرأت:

"سهيلة... لا أعلم كيف أبدأ. كل ما أعرفه أنني أخطأت، وأن غيابي عنك كان أغبى قرار اتخذته في حياتي. أفقدك، وأتمنى أن أراك ولو لمرة واحدة... كي أقول لك: سامحيني."

ارتجفت يدها، قلبها خفق بقوة، عادت كل الذكريات دفعة واحدة، لكن وجهها ظل جامداً. ضحكت ابتسامة باهتة وهمست لنفسها:
"ها قد عاد الظل... لكني لم أعد أبحث عن الضوء فيه."